

السياق المقامي وأهميته في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي

وان محمد وان سولونج

جامعة بوترا الماليزية

الدكتور شمس الجميلي يوب

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

الملخص

الخطاب النبوي هو الحوار الذي أجري بين الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومشاركين آخرين من أفراد المجتمع في عصره صلى الله عليه وسلم كما روي في الأحاديث النبوية. ويمثل الخطاب النبوي جزءاً من السنة النبوية التي هي بمثابة المرجع الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم، ما جعله موضع اهتمام العلماء والدارسين المسلمين في تفسير نصوصه وتحليل مضمونه. واتفقوا على أن من متطلبات تفسير الخطاب النبوي وفهمه -فضلاً عن السياق اللغوي- هو السياق الموقفى أو المقامى؛ ذلك لأن الخطاب النبوي هو الخطاب الاجتماعى ولا يمكن تحليله وتجليه دلالاته على نحو صحيح ودقيق إلا بالنظر إلى المقام الذى أجري فيه الخطاب. وكان من مقتضى اتصاف كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالبلاغة والفصاحة اهتمامه بعناصر المقام للحدث الكلامى من المشاركين، وموضوع الخطاب، والبيئة، وهدف الخطاب وغيره. لذلك، إن النظر فى سياق المقام يساعد على بيان الدلالة الحقيقية للكلمة أو الشكل اللغوى التى قد تختلف عن دلالتها المعجمية. إضافة إلى ذلك، إن النظر فى المقام بدوره قادر على

استكشاف القيم الاجتماعية والثقافية والعادات والأعراف السائدة في العهد النبوي. وعلى هذا الأساس، يسعى هذا البحث إلى كشف أهمية المقام في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي وتحليلها، ويهدف إلى تجلية عناصر المقام التي ينبغي الاعتناء بها وتقديم المقاربة الجديدة في تحليل الخطاب النبوي ونماذج تطبيقها عليه.

١. المقدمة

إن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لضوابط وعوامل اجتماعية، منها علاقة المتكلم بالمستمع من حيث المكانة الاجتماعية، والجنس، والعرق، والعمر، والدين، ومدى الألفة والتضامن، فضلاً عن طبيعة موضوع الحديث، وما إذا كان الموقف رسمياً أو غير رسمي، والقيم الاجتماعية ونوع الخطاب.

وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- بصفته نبياً ورسولاً يتحمل مسؤولية تبليغ الإسلام إلى الناس، فلا مناص له من استخدام جميع وسائل الكلام لاستيفاء المهمة؛ لذلك كان لا بد لكلامه من أن يتطابق مع مقتضى الحال. وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يخاطب كل قوم بل كل فرد بقدر حاله، وأن تكون ألفاظه وأساليبه ملائمة لما يوظفه في مخاطبتهم من صور بيانية يقرب بها البعيد ويوضح بها الغامض.

والحديث النبوي في عمومته له دلالة من ظروف الخطاب ومرجع في مقام القول، وأصول في ثقافة المتكلم وعقيدته وبعض أعراف قومه؛ لذلك يتعين على مناهج البحث اللغوي للخطاب النبوي ألا تقتصر في تفسيره على مبادئ لغوية محضة، وإنما ينبغي لها أن تستمد من علم اللغة الاجتماعي الحديث بعداً جديداً يجاوز تلك المبادئ اللغوية الخالصة ويستشرف اللغة من خلال زاوية واسعة هي السياق المقامي أو الاجتماعي الذي تستعمل فيه اللغة وما يصاحب هذا السياق من عوامل خارجية تؤثر في استعمال اللغة كالإطار الاجتماعي وظروف المتكلم والمخاطب والغرض وغيره.

٢. تعريف السياق المقامي

يرى الزنكي أن مصطلح "السياق" يعدّ من المصطلحات التي لم يتم تحديد ماهيتها في فنون اللغة العربية قديماً فلا تكاد تجد تعريفاً صريحاً بماهيتها جامعاً

للأفراد مانعاً من الأغيار، كل ما في الأمر أن علماء العربية يستدلون به ويشيرون إلى دلالاته - أثناء استدلالاتهم - من غير أن يحددوا معناه النظري تحديداً صريحاً^(١).

تقابل كلمة السياق مصطلح "Context" في اللغة الإنجليزية. ويقصد بالسياق اصطلاحاً عند بعض اللغويين الاجتماعيين المحدثين كما يأتي:

“Context conventionally seen as linguistic and non linguistic phenomena that surround a particular linguistic feature or utterance”⁽²⁾.

"السياق ينظر إليه تقليدياً على أنه ظواهر لغوية وغير لغوية تحيط بشكل لغوي أو نطق لغوي معين".

وعرّف الزنكي السياق بأنه ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء كانت القرائن مقالية أو حالية. وتعبير آخر: هو العبارات المكونة والسابقة واللاحقة والغرض الذي جاء من أجله الكلام^(٣).

وتبين مما سبق أن السياق نوعان:

١- السياق اللغوي (أو المقالّي): العبارات المكونة والسابقة واللاحقة ذات الترابط النحوي أو المنطقي.

٢- والسياق المقامي: ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء كانت قرائن في الخطاب ذاته أو في المتكلم أو في

١. الزنكي، نجم الدين كريم قادر، نظرية السياق: دراسة أصولية، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م، ص ٣٥.

2. Swann, Joan, *et.all.*, **Dictionary of Sociolinguistics**, Edinburgh University Press, UK, 2004, p. 49.

٣. الزنكي، نظرية السياق: دراسة أصولية، ص ٦٣.

المخاطب أو في الجميع^(١). أو بتعبير آخر هو السياق الذي يشير إلى النواحي المباشرة للنص والتي تمكن ملاحظتها أثناء حدوث الكلام مثل الإطار والمشاركين والنشاطات التي وقعت فيه^(٢). وعبر عنه مالمينوفسكي أن المقام هو البيئة المحيطة بالنص^(٣).

٣. أهمية المقام في تفسير الخطاب

أشار العلماء المسلمون القدامى من البلاغيين واللغويين والأصوليين إلى أهمية المقام في معرفة دلالات الخطاب. ومنهم: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠هـ - ٢٥٦هـ) الذي قدّم ملاحظات حول الكلام والمقام في عدة مؤلفات، مثل رسائل الجاحظ، والحيوان، والبخلاء، والبيان والتبيين. فقد أكد الجاحظ في رسائله ظاهرة تأثر اللغة بطوابع الحياة التي يحيها المتكلمون وأثر هذه الحياة في رسم اللغة بسمات خاصة من حيث المفردات والأساليب. ومما ساقه في بعض رسائله قصة جماعة من أصحاب الحرف الذين وصفوا معركة دارت في بلاد الروم، فيصفها كل واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته، ثم يذكر عدة أبيات في الغزل فيها ألفاظ وكلمات لها علاقة بمهنة كل واحد منهم^(٤).

١. الزنكي، نظرية السياق: دراسة أصولية، ص ٦٣.

2. Swann, *Op.cit.* p. 51.

3. Halliday M.A.K., Ruqaiya Hasan, **Language, Context and Text: Aspects of Language in a Social-Semiotic Perspective**, Oxford University Press, UK, 1991, p. 6.

٤. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، ت. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣٨١-٣٩٣.

وأورد في كتابه "البخلاء" لكل شخصية من شخصياته ألفاظاً وتعابير وصيغاً مطابقة لما هي عليه في الحياة. فعنده أن كلام الناس طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فالقاضي يتكلم بالعبارات الفقهية، والتاجر يستعمل ألفاظاً متداولة في السوق، والمكدي يستخدم ألفاظ المكدين، واللصوص يتكلمون بتعابير اللصوص.

وتعرض الجاحظ كذلك في البيان والتبيين لمثل هذه الظواهر محاولاً بيان ما تحمله اللغة من الحياة التي يعيشها مستعملوها، وأرشد إلى ألا نكلم الآخرين إلا بما يفهمونه وبما دأبوا على استعماله في تواصلهم، بل إنه يجب عند الجاحظ "إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"^(١).

ومن أفضل السابقين الذين عالجوا هذا المفهوم القاضي عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، ويعتبر من الرواد الذين أشاروا إلى تحديد خطورة السياق في بيان الدلالة المطلوبة في كتابه "دلائل الإعجاز"، حين ربط كل كلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله. وعنده أنه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات وإنما لكل موقف ومقتضى حال تركيب يتلاءم معه^(٢). وللمعنى عند الجرجاني أبعاد ثلاثة:

أولها: معاني اللفظة المفردة أو ما يطلق عليها اليوم بـ (المعنى المعجمي).

وثانيها: طرق التعليق بين الكلم وربطها، وهي المعاني النحوية التي تفرز عبر أحكام تنظيم الجملة المعينة.

١. الجاحظ، البيان والتبيين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨م، ج ١، ص ٩٣.
٢. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت. عبدالحميد هندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٤٠.

وثالثها: الإبانة عما في النفس أو البيان، أو تمام الدلالة وهو ما يسمى بـ (المعنى الدلالي) الذي يعتمد على المعنى المقالي - الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي)، والمعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وفهمه^(١).

وقد وردت إشارات إلى مناسبة اللغة للمقام في مؤلفات عدد من اللغويين العرب. فمن بينهم ابن جني في كتابه "الخصائص" الذي قرر أن اللغوي لا ينبغي أن يكتفي بالسمع بل عليه أن يجمع إليه الحضور والمشاهدة ويحيط بظروف الكلام^(٢). ويفهم من كلام ابن جني هذا أنه لا ينبغي للغوي أن يفسر الكلام اعتماداً على الرواية المسموعة فحسب، وإنما يجب أن يأخذ في اعتباره المقام المحيط بالكلام.

أما الخطيب القزويني فقد تعرض له فقرر أن مقامات الكلام متفاوتة. يقول: "ومقتضى الحال مختلف، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام إلى غير ذلك... وهذا - أعني تطبيق الكلام على مقتضى

١. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت. عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٤٩٥.

٢. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت. محمد علي النجار، دون مكان الطبع، د. ت، ج ١،

الحال- هو الذي يسميه الشيخ عبدالقاهر بالنظم حيث يقول: "النظم تأخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"^(١).

أما ابن قتيبة فقد أكد على العلاقة بين المقام والأسلوب في كتابه "تأويل مشكل القرآن" رابطاً تعدد الأساليب والافتتان فيها بطرق العرب في أداء المعنى: "فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما أشبه ذلك- لم يأت به من واد واحد، بل يفتنّ فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء ويكني عنه، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام. ثم لا يأتي الكلام كله مهذباً كل التهذيب، ومصقياً كل التصفية، بل يمزج ويشوب ليدل بالناقص على الوافر وبالغث على السمين، ولو جعله كله بحراً واحداً لبخسه بهاءه وسلبه ماءه"^(٢).

ويبدو من نص ابن قتيبة ربطه الواضح بين الأسلوب وطرق أداء المعنى في نسق مختلف بحيث يكون لكل مقام مقال، فتعدد الأساليب راجع إلى اختلاف الموقف أولاً، ثم طبيعة الموضوع ثانياً، وإلى مقدرة المتكلم وفنيته ثالثاً.

وبجانب اللغويين والبلاغيين، قد لفت الأصوليون نظرنا إلى امتدادات المقام، ومنهم الإمام الشاطبي؛ إذ يشير إلى أهمية معرفة حال الخطاب. ومما يعدّ من حال الخطاب الواقع الذي عليه الخطاب في الخارج، وهذا ما عبّر عنه الشاطبي بـ "المخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار" حيث يقول: "إن كل خبر يقتضي أموراً

٣. الفزوني، الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدیع، دار الكتاب الإسلامي، دون

مكان الطبع، ط ١، ١٩٨٥م، ص ١١-١٢.

١. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٣.

خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار، في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك.^(١)، فهناك صلة بين كل من الخطاب والمخاطب والمخبر عنه والمخبر به ولا يمكن فهم مساق النص بدونها، وبها تتبين حال الخطاب. وقوله: "أمور خادمة" إشارة إلى أهمية اعتبار جميع ما يحيط بالمقام من الثقافة والعرف والقيم الاجتماعية في تفسير النص.

ونذكر حسان أن الأصوليين حتموا على من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن أموراً لا ينبغي أن يغفل عنها هي في الواقع "مقام" للفهم، فعليه مثلاً:

١- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه،

٢- ألا يغفل عن السنة في تفسيره،

٣- أن يعرف أسباب النزول،

٤- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

وهذه حسان إلى أن هذه العناصر الأربعة يمكن اختصارها في كلمة "المقام" فلا ينبغي لمن يتصدى لتفسير آية أن يغفل عن مقامها^(٢).

وهكذا نرى أن فكرة مناسبة المقال للمقام قد تناولها العلماء القدامى، فأدركوا أهمية المقام في فهم النصوص ونصّوا على ضرورة اعتبارها في تفسير المعنى. وخالصة ما ذكّر لدى العلماء المتقدمين أن للسياق المقامي امتدادات كالسياق المقالّي، حيث يمتد إلى كل الأمور ذات الصلة بالكلام، من حال الخطاب والمتكلم

٢. الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٦٧.

١. حسان، تمام، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٤م، ص ٣٤٩-٣٥٠.

والمخاطب أو الجميع. ومعنى الكلام يختلف باختلاف تلك الأحوال، فالكلام الذي خرج من متكلم عامد قاصد غير الذي خرج من متكلم مازح أو هازئ، والسامع الحصيف يختلف عن غيره، والسامع العارف بعبادات المتكلم يختلف عن الجاهل بها، والخطاب الذي يحمل في الواقع صدقاً ذاتياً غير الكلام الذي يفتر صدقه في الخارج إلى تأويل أو تقدير أو إضمار. فإذا جُمعت تلك الأحوال جميعاً، يتضح مدى اختلاف معنى الكلام الواحد الذي خرج من متكلمين مختلفي الحال لمخاطبين مختلفي الأحوال.

وعلى الرغم من أن الدراسة المنهجية لفكرة المقام لم تتبلور على أيديهم لتصبح مفهوماً منتظماً في الدراسات اللغوية لأن فضل ذلك يعود إلى اللغويين المحدثين خاصة الغربيين، إلا أن "اعترافهم بالفكرة متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"^(١).

ويعتبر أول من اقترح مصطلح سياق المقام (Context of situation) في العصر الحديث عالم أنثروبولوجي برونيسلاو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski)، وذلك حين درس لغة السكان الأصليين في جزر جنوب المحيط الهادي المعروفة بجزر تروبرياند بنيو غينيا (Trobriand Island)

١. حسان، تمام، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٤م، ص ٣٣٧.

في اللغة البدائية" (The Problem of Meaning in Primitive Language) ، في مقالة كتبت عام ١٩٢٣م، بعنوان "مشكلة المعنى في حيث قَدَمَ مصطلح سياق المقام ويعني به البيئة التي تحيط بالنص. وأبان مالينوفسكي أن تفسير النص أو الكلام لا يتوقف عند معرفة البيئة المباشرة (Immediate environment) أي بالمعلومات التي ترتبط بما يحدث في زمن إنتاج النص أو حدوث الكلام فحسب، وإنما يتجاوز ليشمل جميع ما يرتبط بالنص والكلام من خلفيات الثقافة والتاريخ للمشاركين في الاتصال والنشاطات التي يمارسونها؛ لذا، اقترح مصطلحاً آخر وهو سياق الثقافة (Context of Culture). واعتبر أن هذين السياقين (المقامي والثقافي) مهمان للوصول إلى فهم وافٍ بمراد النص^(١).

وبعد مالينوفسكي، فقد طور فيرث مفهوم سياق المقام، ورأى أن مالينوفسكي لم يقدم مفهوماً وافياً بأهداف النظرية اللغوية لعدم عموميته. أراد فيرث أن يبدع مفهوم سياق المقام الذي يمكن تطبيقه على أي لغة والذي يلائم بالنظرية اللغوية العامة؛ لذا، حدد فيرث عناصر مكونة للموقف الكلامي التي تعتبر معياراً لدراسة سياق المقام وهي:

١- المشاركون في الخطاب؛ شخصيتهم، وتكوينهم الثقافي، وانتماؤهم الاجتماعي أو المهني، ودورهم الاجتماعي، وسلوك المشاركين ويشتمل على السلوك الكلامي وغير الكلامي.

1. Malinowski B., **The Problem of Meaning in Primitive Language**, in C.K.Ogden and I.A. Richards, **The Meaning of Meaning**, Keagan Paul, London, 2001, p.46

- ٢- المواد أو الأشياء الموجودة في الموقف من أجسام وأثاث وأدوات وأحداث.
- ٣- أثر السلوك الكلامي: الآثار المترتبة على كلام المشتركين في الحدث الاتصالي^(١).
- واقترح ديل هايمس ستة عشر عنصراً لمقام وجمعها في اللفظة الأوائلية SPEAKING ، وهي:
- ١- الإطار والمشهد (S) **Setting and Scene**: الإطار يشير إلى الزمان والمكان وجميع ما يتعلق بالأوضاع المادية التي حدث فيها الكلام. أما المشهد فيشير إلى الإطار النفسي المجرد أو التعريف الثقافي للموقف.
- ٢- المشاركون (P) **Participants**: ويشمل مجموعات متنوعة من المشاركين؛ المتحدث - المستمع، الملقى - المتلقي أو المرسل - المستلم.
- ٣- الغاية (E) **Ends**: تشير إلى وظيفة الكلام والنتائج المتوقعة منه والهدف الشخصي الذي يرمي إليه المشاركون في الحدث الكلامي.
- ٤- تسلسل العمل (A) **Act sequence**: يشير إلى حقيقة الأسلوب والمضمون المستخدمين في الكلام، ويشمل المفردات والتراكيب الحقيقية المستخدمة وكيف تستخدم، لأي وظيفة تستخدم، وما علاقتها بموضوع الكلام.
- ٥- المفتاح (K) **Key**: ويشير إلى النبرة أو الروح أو السلوك الذي وقع فيه الحدث الكلامي مثلاً: الفرح والجد والغرور والغضب.

1. Firth, J.R, **Papers in Linguistics 1934-1951**, Oxford University, UK, 1969, p.182.

٦- الوسائل (I) Instrumentalities: تشير إلى قنوات الاتصال سواء أهي لغة مكتوبة أم منطوقة، كما تشير إلى شكل الكلام كاللغة الفصحى أو اللهجة أو الشفيرة.

٧- نماذج التعامل والتأويل (N) Norms of interaction and interpretation : تشير إلى السلوك والقيم الخاصة لموقف معين، أو لمجتمع معين، وكيف ينظر إليها من لم يشاركها.

٨- جنس الخطاب (G) Genre: يشير إلى نوع أو جنس الكلام مثل الشعر والمثل والخطبة والدعاء والحوار^(١).

وبجانب هذه الآراء في تصنيف عناصر المقام، هناك اقتراحات أخرى لعدد من اللغويين المحدثين أمثال هاليداي ويل وبابير مما لا يتسع لهذا المقام سردها. وجميع ما يقصد أن يؤكد الباحث هنا أن اللغويين الاجتماعيين المحدثين قد طوروا تصنيف عناصر المقام وقدموا مناهج منتظمة لتحليل المقام مما يمكن العثور عليه في دراسات إثنوغرافيا الاتصال والتحليل الحوارية والتحليل التفاعلي وتحليل الخطاب النقدي. ويجدر التنبيه إلى أن هذه المناهج يمكن توظيفها في تحليل الخطاب النبوي بغية الوصول إلى الفهم الدقيق لدلالاته التي قد لا تدرك بدون الإحالة إلى تفاصيل المقام.

٤. نموذج تحليل المقام في الخطاب النبوي حسب منهج التحليل الحديث

دلالات صيغ المخاطبة

1. Hymes, Dell, *Models of the Interaction of Language and Social Life*, in Gumperz, John P., Hymes, Dell, *Directions in Sociolinguistics, the Ethnography of Communication*, UK: Basil Balckwell, p.60-65

من الشواهد اللغوية الدالة على العلاقات الاجتماعية بين الناس صيغ المخاطبة في الخطاب. فقد ذهب تمام حسان إلى أن اختيار المتكلم الصيغ المناسبة للمخاطب يعود إلى دوره في المجتمع، فالعبارات التي يستعملها الأب غير العبارات التي ترد على لسان الأم، فالأب مثلاً لا يقول (يا حبيبي) إذا كان يخاطب الكبار من أبنائه ولكن الأم تقول ذلك بإسراف^(١). وقرر هـدسون أن اختيار المتكلم أسماء معينة للمخاطب يصور العلاقة بين المخاطب والمخاطب خاصة علاقة القوة والتضامن، وأن هذه العلاقة تحدد استخدام الاسم الأول أو اسم العائلة أو اللقب للمخاطب^(٢). وأشار شاهر حسن إلى أن المتكلم يختار مستوى لغوياً معيناً وعبارات لغوية محددة وفقاً لمتطلبات الموقف والمقام، فالمعلم في غرفة الصف مثلاً يخاطب طلابه بالاسم الأول، في حين يلجأ الطالب عندما يخاطب المعلم إلى استعمال لقب نحو: (يا) أستاذ، (يا) دكتور، وقد يضيف الطالب بعد هذه الألقاب اسم الأستاذ أو الدكتور نحو: (يا) أستاذ أحمد، (يا) دكتور علي^(٣).

ومن عادة العرب في المجتمع الكلامي النبوي استخدام الاسم أو الكنية أو اللقب في خطاب الأفراد. وقد يخاطب شخص واحد بعدة صيغ المخاطبة؛ تارة باسمه وثانية بكنيته وثالثة بلقبه وأخرى باسمه الكامل (أي اسم الشخص بالإضافة إلى اسم أبيه). والذي يقتضي إلى هذا التنوع في التسمية متطلبات المقام أثناء الحدث الكلامي. واستخدام أكثر من صيغة في تسمية المخاطب في الكلام -في حقيقة الأمر- أمر سائد في خطاب النبي إلى أعضاء مجتمعه. وما فعله الرسول -صلى الله عليه وسلم- من التنويع في هذه الصيغ إن هو إلا نابع من مراعاته

٢. حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٥٧.

2. Hudson, R.A., **Sociolinguistics**, Cambridge Univ. Press, 1980, p. 122.

٢. شاهر حسن، السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، ص ٤٦.

الشديدة للقيم الاجتماعية والثقافية المحيطة به. وتجليه للموضوع، في ما يأتي نماذج أحداث كلامية فيها نوع صلى الله عليه وسلم في صيغ المخاطبة بين الاسم والاسم الكامل وبين الاسم والاسم مع صلة القرابة. ويعتمد الباحث في تحليلها على نظرية ديل هايمس في وصف عناصر المقام المجموعة في اللفظة الأوانلية SPEAKING كما تقدم.

(أ) خطاب الأقارب

النموذج ١

...أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}:

١. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِّبِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا^(١).

النموذج ٢

١. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، رقم ٣٥١ (٢٠٦)، ج ١، ص ١١٥.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الصَّفَا،

٢. فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ

الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ^(١).

الجدول ١: عناصر المقام للحدث الكلامي في النموذجين ١ و ٢

عناصر الحدث	البيان
المشهد، الإطار (S)	الرسول -صلى الله عليه وسلم- واقف على جبل الصفا بمكة يخطب، وحوله أناس من مختلف القبائل، وكانت الخطبة بداية الجهر بالدعوة منذ البعثة النبوية. الإطار المكاني: عند جبل الصفا بمكة. الإطار الزمني: في بداية البعثة النبوية.
المشارك (P)	النموذج ١: الرسول -صلى الله عليه وسلم-، معشر قريش، بنو عبد المطلب، العباس بن عبد المطلب، فاطمة بنت رسول الله، صفية عمة رسول الله. النموذج ٢: الرسول -صلى الله عليه وسلم-، العباس بن عبد المطلب، فاطمة بنت رسول الله، صفية عمة رسول الله.
الغاية (E)	إنذار الجمهور بعدم نفع علاقة القرابة في إنقاذهم من النار يوم البعث والجزاء.

٢. المرجع السابق، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، رقم ٣٥٠ (٢٠٥)،

ج ١، ص ١١٥.

المفتاح (K)	الجد
الوسائل (I)	الكلام الشفهي
جنس الخطاب (G)	الخطبة

الشاهد في هذين الحديثين صيغة الاسم الكامل في قوله -صلى الله عليه

وسلم-:

١...١. يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا..

٢. فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بِنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا سَأَلْتُمْ.

وصيغة الاسم مع صلة القرابة في قوله صلى الله عليه وسلم:

١...١. يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا سَأَلْتِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

أما الإطار الزمني، فقد وقع في بداية البعثة النبوية حين أمر الله سبحانه وتعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يبادي قومه بالتبليغ وأن يصدع بما جاء منه تعالى. وهي بداية الجهر بالدعوة بعد أن قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مدة ثلاث سنين من مبعثه في الإسرار بالدعوة^(١). وذلك بعد أن نزل

١. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ت: محمد فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿فَاصْنَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢). أما الإطار المكاني فكان على جبل الصفا كما صرحت به رواية النموذج ٢.

أما المشهد، فكان إلقاء الخطبة أمام حشد من الناس؛ لذلك بدأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنداء قريش أولاً ثم أتبعه ببني عبد المطلب ثم ذكر الأشخاص بعينهم وهم العباس بن عبد المطلب وصفية عمة رسول الله وفاطمة بنت رسول الله. وفي رواية لعائشة (النموذج ٢)، جاء ذكر صفية بنت عبد المطلب بدل عمة رسول الله، وفاطمة بنت محمد بدل بنت رسول الله. أما الغاية فواضح من كلماته صلى الله عليه وسلم أنها الإنذار بيوم البعث والجزاء، وهو إعلان لعقيدة جديدة مخالفة لعقيدة معظم الناس - وقتذاك - الذين لا يؤمنون بالبعث أو بالحياة بعد الموت. ومفتاح الخطاب هو الجد.

في ظل هذا المقام، استخدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - صيغ الاسم الكامل أو الاسم مع صلة القرابة، فما وجه المناسبة في ذلك؟ في النموذج ٢، بين صلى الله عليه وسلم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً أي لا ينجيهم من عذاب الله إن كفروه وعصوه، وكرر تلك المقولة لكل من يناديه. والذي يظهر من السياق أنه صلى الله عليه وسلم أراد منها التأكيد على أن علاقة القرابة لا تنجيهم من الله شيئاً. وكان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن ينادي فاطمة والعباس وصفية بأسمائهم دون الإضافة إلى الآباء ولا صلة القرابة إلا أنه صلى الله عليه وسلم -

٢. سورة الحجر، الآية ٩٤.

٣. سورة الشعراء، ٢١٤.

في حقيقة الأمر - حين كان ينادي هؤلاء الثلاثة لم يقصد انتباههم فحسب وإنما قصد في الدرجة الأولى تنبيه المستمعين الحاضرين بما سيلقيه. وكان الرسول يعرف النزعة السائدة في عشيرته -آنذاك- وهي النزعة القبلية وتعصبهم للعلاقة الدموية. فجاء خطابه صلى الله عليه وسلم باستخدام الاسم مع الإضافة إلى الآباء أو صلة القرابة لأنه أنسب وأوفى بالمراد، وهو يوحي بأنه على الرغم من قرب العلاقة بينه وبينهم فإنه صلى الله عليه وسلم لا ينجيهم من الله شيئاً، حتى إن أقرب الأشخاص إليه صلى الله عليه وسلم لا ينجيهم قرب علاقتهم به صلى الله عليه وسلم، سواء أكان القريب عمًّا، أم عمَّةً، أم بنتاً فلا ينجيهم صلى الله عليه وسلم من الله شيئاً. هذا، فضلاً عن أن استخدام الصيغة المخافة لما هو معتاد يضيف على الخطاب صفة الجدية والرسمية التي تخالف التخاطب العادي^(١) وأقدر على جلب الانتباه والاهتمام ممن ذكر اسمه بأهمية الموضوع وخطورته. وأفرد صلى الله عليه وسلم فاطمة وصفية وعباس لشدة قرباتهم، ولشدة صلته بهم من بين قراباته. وفاطمة كانت أصغر أولاده، وللصغير زيادة محبة، فإذا انتفى نفعه صلى الله عليه وسلم لمن يحب من أقاربه ومن يحرص على نفعه، انتفى عن غيره من باب أولى^(٢). ويشكل نداء فاطمة في الحديثين،

١. يقصد بالتخاطب العادي هو المستوى الذي يستعمله الأصدقاء فيما بينهم أو الذي يتخذه جماعة من الناس لتناقش موضوعاً مألوفاً لديهم جميعاً. وهذا المستوى الخطابي تكثر فيه المناقشة ومقاطعة المتكلم والتعليق والتكرار على الحديث إلى غير ذلك من الأمور التي تجعل اتخاذ القرارات السريعة ممكنة، كما تكثر فيه الجمل الناقصة وأشباه الجمل والإجابات بكلمات مفردة أو حتى بالإيماء والإشارة.

(انظر: Joos, Martin: **The Isolation of Styles** ، في Fishman, Joshua A. **Readings in the Sociology of Language** ، The Hague: Mouton Publishers ، 1977 ، p 188-189)

٢. لاشين، موسى شاهين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٤٥.

وهي لم تكن بالغة بحيث يشعر بأنها كانت حينئذ تخاطب بالأحكام^(١). ويمكن أن يجاب على هذا الإشكال بأن نداءها لم يكن لتكليفها بالأحكام، وإنما ليعلن للجمهور الحاضرين أنه صلى الله عليه وسلم لا ينجيها من الله إن لم تعمل نفسها بعد بلوغها، وإن كان بإمكانه أن يعطيها من ماله ما تسأل. وإنما همه صلى الله عليه وسلم في هذا المقام هو التأكيد بعدم نفع العلاقة الدموية في إنجاء شخص من عذاب الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

وفي رواية أخرى جاء خطاب فاطمة باسمها فقط كما في النموذج ٣ الآتي:

النموذج ٣

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ،

٣. فَقَالَ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

يَا بَنِي مُرَّةِ بْنِ كَعْبِ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ،

٣. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار طيبة، الرياض،

٢٠٠٥م، ج ١٠، ص ٤٦٥.

يَا فَاطِمَةُ اتَّقِي نَفْسِكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ نَكْمَ
رَحْمًا سَأَبْلُغُهَا بِبِلَالِهَا^(١).

هذا الحدث الكلامي اشتمل على عناصر المقام التي تشبه الحدث في النموذج ١ و ٢ السابق. وكان خطبة ألقاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمام حشد من الناس بمكة عندما نزل الأمر بالجهر بالدعوة. وقد يكون هو والحدثان ١ و ٢ حدثاً واحداً، وقد يكون العكس لاختلاف مضمون الخطبة بين هذه الأحداث. وقد يكون حدثاً واحداً إلا أن الخطاب يختلف. فالخطاب في هذا الحدث تلفظ به صلى الله عليه وسلم بعد الخطاب في الحدث ١ و ٢ السابق أو قبله.

في هذا الحدث، جاء التأكيد في كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- للجمهور المتقين على وجوب الاستعداد ليوم البعث لإنقاذ أنفسهم من النار، ثم يأتي في آخر الكلام تنبيههم على أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك لهم من الله شيئاً. وهذا بخلاف ندائه لفاطمة والعباس وصفية في الحدث ١٢ و ١٣ حيث التأكيد من بداية الخطبة لقضية أن علاقة القرابة لا تنجيهم من الله شيئاً من خلال تكراره صلى الله عليه وسلم لقوله "لا أعني عنكم من الله شيئاً" لكل من يناديه في ذلك الموقف. فالغاية من الخطاب في الحدث ١ و ٢ منذ البداية هي إنذار الجمهور بعدم نفع علاقة القرابة في إنقاذهم من النار، بينما الغاية الأساسية من الخطاب في الحدث ٣ هي تذكير الجمهور بإنقاذ أنفسهم من النار. فعليه، تنوع

١. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، رقم ٣٤٨ (٢٠٤)، ج ١، ص ١١٤.

الأسلوب بتنوع المقام. وجاء ذكر أسماء فاطمة والعباس وصفية مضافة إلى الآباء أو صلة القرابة في الخطاب ١ و ٢ لغرض التأكيد على أن علاقة النسب أو القرابة لا تتفع يوم القيامة. وفي الخطاب ٣، لا يضاف اسم فاطمة إلى أبيها لأن التأكيد ليس لقضية العلاقة الدموية وإنما الاستعداد بالعمل لإنقاذ أنفسهم من النار.

في النموذج ٣، وردت أسماء استخدمها الرسول -صلى الله عليه وسلم- في خطاب عشيرته الأقربين وهي: ١- يا معشر قريش، ٢- يا بني كعب بن لؤي ٣- يا بني مرة بن كعب ٤- يا بني عبد مناف، ٥- يا بني عبد المطلب ٦- يا بني عبد شمس ٧- يا بني هاشم.

ومن روعة بلاغة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الموقف مراعاته للأقدمية والأكثرية عدداً في نداء القبائل. نادى أولاً بني كعب بن لؤي لأنه أكبر العشائر وأصل البطون الأخرى المذكورة في الخطبة. فمنه تفرع بنو مرة بن كعب، ومن مرة بن كعب جاءت بطون أخرى هي بنو عبد شمس وبنو عبد مناف وبنو هاشم. ثم جاء ذكر بني عبد المطلب وهو بطن من بني هاشم لأن عبد المطلب هو ابن هاشم. وانتقل فيما بعد إلى نداء أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه وهي فاطمة. وفي النموذج ١، جاء نداؤه صلى الله عليه وسلم عاماً لمعشر قريش، ثم خصصهم بندااء بني عبد المطلب، ثم الأفراد ورتبهم حسب الأقدمية عمراً فبدأ بالعباس بن عبد المطلب ثم صفة عمه رسول الله وانتهى بفاطمة بنت رسول الله.

وكان أفراد النبي -صلى الله عليه وسلم- البطون بالذكر واحداً تلو الآخر من أجل استجلاب انتباههم، ويقربهم إلى المخاطب، فيؤثر تأثيراً أقوى في نفوسهم. وفي نفس الوقت، يشعر هذا الأسلوب بالتقسيم القبلي الذي ساد في مجتمع ذلك

العصر والتعصب العشائري المستحكم في نفوسهم رغم أنهم من جد واحد وأصل واحد، وراعاه الرسول -صلى الله عليه وسلم- في خطابه. كما يوحي الأسلوب أن التعصب القبلي الذي يفتخرون به لا ينجيهم من الله شيئاً، مهما كبرت أو صغرت القبيلة ومهما قويت أو ضعفت. وعلى هذا، يمكن أن يقال إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أخذ بعين الاعتبار حالة الجمهور الاجتماعية وثقافتهم وطبقاتهم، فجاء خطابه إياهم مراعيّاً أقدمية القبائل وأكثريتها. فالجمهور هو العامل في تصميم الأساليب، وحتى نداؤه للأفراد (عباس بن عبد المطلب، وصفيّة عمّة رسول الله، وفاطمة بنت رسول الله) في هذا الموقف، لا يُقصد به الأشخاص المنادون بعينهم فحسب وإنما يقصد به المستمعون كذلك وهم القبائل الحاضرون في الموقف.

ب) خطاب الصحابي معاذ بن جبل

النموذج ٤

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤَخَّرَةُ الرَّحْلِ،

فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

قُلْتُ: لَيْبَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ [ثُمَّ سَارَ سَاعَةً]

ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

قُلْتُ: لَيْبَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ [ثُمَّ سَارَ سَاعَةً]

ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

قُلْتُ: لَيْبَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ

قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. [ثُمَّ سَارَ سَاعَةً]

قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ

قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ^(١).

اتخذ هذا الحدث مشهد ركوب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حماره ورديفه في خلفه هو معاذ بن جبل -رضي الله عنه-. وذهب صاحب فتح المنعم أن الحدث وقع أثناء السفر لإحدى المعارك. وكثيراً ما خرج المسلمون للجهاد مشاة ليس معهم ما يكفيهم من الإبل أو الحمير، وكثيراً ما كان الحمار يحمل اثنين، وكذلك البعير، وكثيراً ما كان الجمع منهم يتعاقب على دابة واحدة لا تكاد تميز بين صاحبها ومرافقيه^(٢). وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- في هذا السفر يركب حماراً ويردف خلفه على حماره أحد الصحابة الأجلاء، معاذ بن جبل.

وأثناء المسير، أنس صلى الله عليه وسلم معاذاً بالحوار لإزالة الوحشة لدى رفيق السفر، فناداه صلى الله عليه وسلم باسمه الكامل "يا معاذ بن جبل" وكرّره

١. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب ١٠، حديث رقم ٤٨ (٣٠)، ج ١، ص

٢٠٣،

١. لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، ج ١، ص ١٠٩.

ثلاث مرات قبل توجيه السؤال إليه. وقبل بدء السؤال الثاني، أعاده مرة أخرى لنفس الغاية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا استخدم الرسول -صلى الله عليه وسلم- هذا الأسلوب المخالف للأسلوب العادي وهو الاسم؟ وما العامل الذي يدفع الرسول -صلى الله عليه وسلم إليه-؟ هل العامل هو المتلقي وفي هذا الحدث معاذ؟ ولم نجد مبرراً للرسول -صلى الله عليه وسلم- لاتخاذ هذا الأسلوب إذا كان العامل فيه هو معاذ، لأن معاذ بن جبل ليس بغريب ولا بعيد العلاقة مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بل رُوِيَ في هذا الحدث أنه رديف الرسول -صلى الله عليه وسلم-. وهذا يدل على قرب علاقة معاذ مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثل غيره من الصحابة -رضي الله عنهم-. وشأنه صلى الله عليه وسلم في نداء الصحابة القريبى العلاقة منه هو الاكتفاء بذكر أسمائهم دون أسماء آبائهم.

ومما يؤيد ما قلنا، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- استخدم الاسم فقط في نداء معاذ في موقف آخر كما يأتي:

النموذج ٥

حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ،

قَالَ: يَا مُعَاذُ!

قَالَ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: يَا مُعَاذُ!

قَالَ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: يَا مُعَاذُ!

قَالَ: نَبِيِّكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ.

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟
قَالَ: إِذَا يَتَكَلَّمُوا.

[فَأُخْبِرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا]^(١).

وهذا الحدث مشابه إلى حد ما بالذي في النموذج ٤. والجدول الآتي يعرض عناصر المقام لكل منهما جنباً إلى جنب:

الجدول ٢: عناصر المقام للحدثين الكلاميين في النموذج ٤ و ٥

الصيغة		عناصر
معاذ (النموذج ٥)	معاذ بن جبل (النموذج ٤)	المقام
الرسول صلى الله عليه وسلم ركب الحمار ومعاذ رديفه.	الرسول صلى الله عليه وسلم ركب الحمار ومعاذ رديفه.	المشهد (S)
الرسول صلى الله عليه وسلم - م ١ معاذ - م ٢	الرسول صلى الله عليه وسلم - م ١ معاذ - م ٢	المشارك (P)

١. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب ١٠، حديث رقم ٥٣ (٣٢)، ج ١،

ص ٢١١.

<p>تعظيم الرسول - صلى الله عليه وسلم - معاذاً أن الله حرم النار على الذي يشهد أن لا إله إلا الله.</p>	<p>تعظيم الرسول - صلى الله عليه وسلم - معاذاً أن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذبهم.</p>	<p>الغاية (E)</p>
<p>م ١ - نادى م ٢ م ٢ - لَبَّى النداء م ١ - نادى م ٢ مرة ثانية م ٢ - لَبَّى النداء م ١ - نادى م ٢ مرة ثالثة م ٢ - لَبَّى النداء م ١ - أعلم وأفاد م ٢ - وجَّه السؤال إلى م ١ م ١ - أجاب</p>	<p>م ١ - نادى م ٢ م ٢ - لَبَّى النداء (سارا ساعة) م ١ - نادى م ٢ مرة ثانية م ٢ - لَبَّى النداء (سارا ساعة) م ١ - نادى م ٢ مرة ثالثة م ٢ - لَبَّى النداء (سارا ساعة) م ١ - وجَّه السؤال الأول م ٢ - أجاب الله ورسوله أعلم م ١ - بيّن الجواب (سارا ساعة) م ١ - نادى م ٢ م ٢ - لَبَّى النداء</p>	<p>تسلسل العمل (A)</p>

	م ١ - وجّه السؤالَ الثاني م ٢ - أجاب: الله ورسوله أعلم م ١ - بيّن الجواب	
المفتاح (K)	الجدّ	الجد
جنس الخطاب (G)	التخاطب العادي	التخاطب العادي

يشير الجدول ٢ إلى أن المقام الذي يكتنف الحدثين متشابه، وأنه لا يوجد مشارك آخر غير الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومعاذ، ما يحتم على أن عامل جمهور المستمعين ليس هو المؤثر في اختياره صلى الله عليه وسلم الاسم الكامل في نداء معاذ. وكذلك المشهد والمفتاح وجنس الخطاب ليس عاملاً لذلك لأن الحدثين مشتركان في ذلك كله. وتبقى الغاية، فهي التي يختلف فيها الحدث ٤ عن الحدث ٥. والاختلاف كائن في مضمون التعليم الذي ألقى إلى معاذ، إلا أنه في كلا الحدثين متعلق بأمور العقيدة، وعلى قدم سواء من حيث الأهمية، لذلك لا يؤثر حقيقةً في اختيار الصيغة.

وعليه، بعد إمعان النظر في جميع نواحي المقام، يُتخلّص إلى أن العامل الحقيقي في اختياره صلى الله عليه وسلم أسلوب نداء معاذ باسمه الكامل هو المتلقي نفسه. فالرسول -صلى الله عليه وسلم- أراد من ذلك جذب انتباهه إلى ما سيعلمه إياه من أمور الدين. ونظراً إلى تشابه المقام للحدثين، يغلب على الظن أنهما خطابان في حدث واحد. والموقف في النموذج ٤ هو بداية خطابه صلى

الله عليه وسلم لمعاذ، لذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يهيء ذهن المتلقي (أي معاذ) وقلبه ومشاعره لما سيتلقى من أمور العقيدة والدين. وهذا يتراءى من أسلوب نداءه صلى الله عليه وسلم بصيغة "معاذ بن جبل" مرة بعد أخرى للتنبية على عظم ما يلقي إليه، والفصل بين نداء ونداء بالسكوت لتشويقه إلى ما يلقي، حتى يصغي ويلقي إليه السمع وهو شهيد فيستقر في قلبه استقراراً تاماً^(١)، ثم إتباعه بالسؤال بدل الإخبار المباشر، كل هذه الأساليب يقصد منها التأكيد والتنبية بأهمية مضمون التعليم واستحضار ذهن المتلقي وفهمه لإشعاره بعظم ما سيلقيه عليه.

ثم تابع صلى الله عليه وسلم خطابه له كما في النموذج ٥، وفيه اكتفى بما تعود عليه في تسمية معاذ وهو نداؤه باسمه فقط لفقدان متطلب إلى مخالفة العادة؛ لأنه قد تهيأ ذهنه واستعدت نفسه لقبول تعليم آخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأبقى عليه الصلاة والسلام أسلوب تكرار نداء اسم المتلقي ثلاث مرات لإشعاره بأهمية ما سيلقى كما في الخطاب قبله. ويدل تسلسل العمل في الجدول ٣،٩ أن الحدث ٥ أقصر قليلاً من الحدث ٤ لاكتفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المؤكِّدات والمهيئات التي في الخطاب الأول لأن المتلقي قد تهيأ ذهنه فلا داعي إلى تكرارها في الثاني.

١ . المباركفوري، صفي الرحمن، منة المنعم في شرح صحيح مسلم، (الرياض: دار السلام، ١٩٩٩م)، ج ١، ص ٧٥.

٥. الخلاصة

وبناء على ما تقدم، يمكن أن يستتج ما يأتي:

- ١- إن من عادات الرسول -صلى الله عليه وسلم- في خطاب أقرائه وأصحابه، استخدام الاسم فقط مثل يا فاطمة ويا معاذ في مواقف التخاطب العادي. ويعتبر هذا الأسلوب هو العرف الشائع في خطاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى هؤلاء.
- ٢- وقد يخرج الرسول -صلى الله عليه وسلم- على هذه العادة، باستخدام الاسم الكامل مثل يا معاذ بن جبل ويا عباس بن عبد المطلب، أو الاسم مع ذكر صلة القرابة مثل يا فاطمة بنت رسول الله ويا صفية عمة رسول الله، إذا اقتضى المقام إلى ذلك. ومن خلال التحليل لنماذج الأحداث الكلامية، تبين أن عامل الجمهور المتلقين والمستمعين من أهم العوامل الدافعة إلى هذا التحول.
- ٣- وكان من أسلوب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في تأكيد مضمون الكلام وجذب انتباه المخاطب لما سيلقيه، هو استخدام أسلوب الاسم الكامل في خطاب المخاطب أو ندائه كما في حديثه صلى الله عليه وسلم مع معاذ.
- ٤- وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- على معرفة جيدة بأنساب قومه، فراعى التسلسل النسبي من الأقدم إلى الأحدث في نداء بطون قريش. كما راعى الأمر نفسه في خطاب الأفراد، فذكر الأكبر عمراً قبل الأصغر. وهذا الترتيب في الذكر يدل على مدى تقدير الرسول لمستوى جمهوره الاجتماعي ويكيف أسلوبه تبعاً له.

٥- إن أسلوب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في نداء قريش وبطونها بالانتقال من عموم "قريش" إلى أفراد كل بطن بالذكر، يوحى بالنزعة القبلية السائدة في ذلك العصر، ويراعيها في خطابه نحوهم ليكون لأجذب لانتباههم وألصق بقلوبهم. وهذا يدل على استحباب مراعاة القيم الاجتماعية والثقافية لمجتمع معين عند التعامل معهم ما لم يخالف الشريعة الغراء.

اعتماداً على ما سبق عرضه، اتضح أن تحليل المقام في الخطاب النبوي يعكس القيم الاجتماعية والثقافية في عصره. وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قدّر هذه القيم أولاً قبل أن يلقي خطابه للجمهور، وهذا قد يحدث عفويّاً وقد يكون العكس. وتقديره صلى الله عليه وسلم لهذه القيم، جعل خطابه متصفاً بالحيوية والتأثيرية والواقعية فضلاً عن البلاغة والفصاحة. وتدل النتائج كذلك على أن تحليل المقام في دراسة الخطاب النبوي قادر على بلورة العلاقة بين اللغة والمجتمع، وربط طريقة كلامية معينة بهوية اجتماعية محددة من خلال الكشف عن عوامل مقامية تحيط بالأحداث الكلامية التي ورد فيها الخطاب، وتحديد العامل الرئيس الحقيقي الذي يؤثر في اختيار الأسلوب المعين. ومن ثمّ تأتي عملية الربط بين هذا العامل الرئيس المؤثر والأسلوب، ما يفسح لنا مجالاً لاستنتاج جوانب اجتماعية وثقافية وراء ذلك التنوع.

المراجع

(١) المراجع العربية

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. ١٩٥٢م. الخصائص. ت. محمد علي النجار. بيروت، لبنان: دار كتاب عربي.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم. ١٩٧٣م. تأويل مشكل القرآن. القاهرة: دار التراث.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. ١٩٩٥م. سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ت: محمد فتحي السيد. ط١. طنطا: دار الصحابة للتراث.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٩١م. رسائل الجاحظ. ت. عبد السلام هارون. بيروت: دار الجيل.
- الجاحظ. ١٩٨٦م. البخلاء. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجاحظ. ١٩٤٨م. البيان والتبيين. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الجرجاني، عبد القاهر. ٢٠٠١م. دلائل الإعجاز. ت. عبدالحميد هندأوي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- حسان، تمام. ١٩٩٤م. اللغة العربية معناها ومبناها. البيضاء: دار الثقافة.
- الشاطبي، أبو إسحاق. بدون تاريخ. الموافقات في أصول الشريعة. بيروت: دار المعرفة.

- الحسن، شاهر. ٢٠٠١م. السمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية. عمان، الأردن: دار الفكر.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل. ٢٠٠٥م. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. الرياض: دار طيبة.
- القزويني. ٩٨٠م. الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. دون مكان الطبع: دار الكتاب الإسلامي.
- لاشين، موسى شاهين. ٢٠٠٢م. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، القاهرة: دار الشروق.
- المباركفوري، صفي الرحمن. ١٩٩٩م. منة المنعم في شرح صحيح مسلم. الرياض: دار السلام.
- مسلم بن الحجاج. ٢٠٠٦م. صحيح مسلم. الرياض: دار طيبة.
- نجم الدين كريم قادر. ٢٠٠٦م. نظرية السياق: دراسة أصولية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- النووي، يحيى بن شرف. ١٩٩٥م. صحيح مسلم بشرح النووي. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

Firth, J.R.1969. **Papers in Linguistics 1934-1951**. UK: Oxford University.

Halliday M.A.K, Ruqaiya Hasan.1991. **Language, Context and Text: Aspects of Language in a Social-Semiotic Perspective**. UK: Oxford University Press.

Hudson, R.A. 1980. **Sociolinguistics**. UK: Cambridge Univ. Press.

Hymes, Dell. 1986. **Models of the Interaction of Language and Social Life**, in Gumperz, John P., Hymes, Dell, **Directions in Sociolinguistics, the Ethnography of Communication**, UK: Basil Balckwell.

Fishman, Joshua A. 1977. **Readings in the Sociology of Language**. The Hague: Mouton Publishers.

Malinowski B., **The Problem of Meaning in Primitive Language**, Supplementary 1 in C.K.Ogden and I.A. Richards. 2001 .**The Meaning of Meaning**. London: Keagan Paul.

Swann, Joan, *et.all*. 2004. **Dictionary of Sociolinguistics**, UK: Edinburgh University Press.